



أنوار السُّنة المُحمديَّة شرح رياض الصالحين (٣) باب التوبة (١)

الشيخ أحمد السيد.

الفهرس

المقدمة:	٣
أسباب التّخلف عن اتّباع النبي ﷺ:	٣
باب التوبة:	٥
أقسام التوبة:	٦
الحديثان الأول والثاني: "والله إني لأستغفر الله... " "يا أيّها النّاس توبوا إلى الله واستغفروه..."	٧
الفوائد:	٨
الفائدة الأولى: القدوة العملية:	٨
الفائدة الثانية: أنواع النيات في العبادة الواحدة:	١٢
الحديث الثالث: "لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله بأرض فلاة"	١٥
فوائد الحديث:	١٥
الأحاديث الرابع والخامس والسادس: "إن الله تعالى يبسط يده بالليل..." "من تاب قبل أن تطلع الشمس..."	١٦
فوائد الأحاديث:	١٦
الحديث السابع: "كان يأمرنا إذا كنا سفراً - أو مسافرين - ألا ننزع خفافنا..."	١٧
فوائد الحديث:	١٨

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى. الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه. الحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه المصير. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

نستعين بالله، ونستفتح مجلسًا جديدًا من مجالس: الاستهداء بسنة النبي ﷺ.

وقبل أن أبدأ بالأحاديث المقصودة في هذا اليوم، أحب أن أؤكد، وأنبه على هذا العنوان العظيم، وهو عنوان الاستهداء بالسنة، ومعنى أن يتخذ الإنسان سنة النبي ﷺ وسيرته سببًا للهداية، وهذا المعنى هو من أشرف المعاني التي يعيش الإنسان لأجلها، ويعيش الإنسان فيها؛ وإذا كان مطلب الهداية هو أعظم مطلب يطلبه المسلم في حياته اليومية، بدليل ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، المفروض قولها على المسلم كل يوم في صلاته، فهذا أعظم مطلب يومي، فإن من أهم ما يوصل إلى هذا المطلب هو: اتباع النبي ﷺ، والاستنارة بهديه، واقتفاء خطواته، والفقّه بسيرته وسنته؛ هذا الطريق هو من أشرف ما يمكن أن يسلكه الإنسان في حياته اليومية ليلبغ المطلب الأعظم، الذي هو مطلب الهداية.

على أن الإنسان يحتاج إلى أن يتنبّه إلى أن هذا المطلب، وإن كان مشتركًا بين المسلمين، أي لا يوجد مسلم لا يعترف ولا يقرّ بقضية أن اتباع النبي ﷺ هداية، وأهمية اتباع النبي ﷺ، هذا محل إجماع واشتراك بين المسلمين، ولكن هناك أسبابًا كثيرة تجعل الإنسان يتخلف عن الوصول إلى حقيقة هذا الشعار.

أسباب التخلف عن اتباع النبي ﷺ:

شعارٌ عظيم، وشعارٌ جميل، وشعارٌ محبوبٌ لكل الأمة الإسلامية، اتباع النبي ﷺ؛ مَنْ مِنَ الأمة لا يحب النبي ﷺ؟! مَنْ مِنَ الأمة لا يرغب في اتباع النبي ﷺ؟! ولكن ما بين الشعار وما بين الحقيقة هناك فجوات كثيرة، مع الأسف، يسقط فيها الكثير.

هناك أسبابٌ للوصول إلى تصديق هذا الشعار:

- شيء منها نفسي قلبي.

- شيء منها متعلق بالفقه، كيف تتبّع النبي ﷺ؟ كيف تعرف هديه؟

- الشيء المتعلق بالفقه هو ما سنركز عليه في هذه اللقاءات.

- ما يتعلق بالقلب مرتبطٌ بأساس استجابتك لله أصلاً؛ أي إن معرفة الحق شيءٌ، واتباع الحق من حيث الإرادة شيءٌ آخر، لكن أهم شيء أن تعرف الحق كما هو.

قد يقول قائل: هل كلامك يدل على أن هناك كثيراً من المسلمين يجهلون حقيقة الحق النبوي؟ فالجواب: نعم، هناك كثير من المسلمين يجهلون حقيقة الحق النبوي، من حيث الجهل المضاد للعلم؛ ولأجل ذلك، فإن من أولى ما جعلت هذه المجالس لأجله هو بيان فقه اتباع النبي ﷺ، وحقيقة الهدي النبوي؛ ما الذي كان عليه محمد ﷺ؟ وقد ذكر في بعض الحلقات السابقة، وسأذكر اليوم، وفي الحلقات القادمة -بإذن الله تعالى- أن القضية تحتاج إلى فقهٍ في الاتباع، وأن اتباع النبي ﷺ لا يكون عبر تجزئة الأعمال، ومن ثمّ اتباع كل عمل وحده، لا؛ لا بد أن تفهم المنظومة: تفهم أولويات العمل النبوي، علام ركّز النبي ﷺ؟ أي الأعمال قدم وأعطاه أولوية واهتماماً؟ وبناءً على هذا التفاوت فيما أعطى النبي ﷺ قضايا الحق من الاهتمام، كذلك تعطيها هذا التفاوت بقدر ما أعطاه النبي ﷺ من التفاوت والاهتمام.

هذه المجالس ستكون مع فرع (رياض الصالحين)، العنوان الأكبر هو: الاستهداء بالسنة، فرع (رياض الصالحين). بعد ذلك -إن شاء الله-، إذا انتهينا، سنأخذ موادّ أخرى في السنة النبوية؛ فسيظل العنوان ثابتاً بإذن الله، وهو الاستهداء بالسنة، والكتاب متغيّر؛ إذ كل مرة نأخذ كتاباً من كتب الحديث. والقصد منها هو: معرفة حقيقة الهدي النبوي؛ لأن معرفة هدي النبي ﷺ لا تستقل به كتب السيرة النبوية، وإنما أيضاً من أهم ما يستخلص منه هو كتب الحديث.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى:

باب التوبة

قال العلماء: "التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته."

هذه تعليقات أحياناً يذكرها الإمام النووي في ثنايا الكتاب، وإلا فالأصل الكتاب آيات وأحاديث.

قال في تنمة الكلام: "وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حداً قذفاً ونحوه مكنته منه أو طلب عفو، وإن كانت غيبة استحلها منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحَّت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة على وجوب التوبة."

كل المجلس سيكون في الوقفة مع الآيات والأحاديث، لكن أريد أن أبدأ بتعليق سريع على كلمة وجوب التوبة: أحياناً، يظن الإنسان المسلم أن التوبة هي عمل من الأعمال الصالحة، مثل: قيام الليل، أو بعض المستحبات؛ إذا أتى به يكون قد أتى بخير عظيم، وإذا تركه يكون قد فاته شيء من الخير، وقد يفوته أحياناً أن التوبة واجبة؛ يوجد تكليف اسمه التوبة، يوجد واجب شرعي اسمه التوبة.

التوبة قسمان: توبة واجبة، وتوبة مستحبة.

التوبة التي تكون من الذنوب هي توبة واجبة؛ وبالتالي الإنسان حين لا يتوب يكون قد لقي الله بذنبن:

– لقي الله بنفس الذنب،

– ولقي الله بذنب عدم التوبة منه؛

لأن الوقوع في الذنب شيء، والاستمرار عليه، وعدم الإقلاع عنه شيء آخر.

وقد يكون في بعض الأحوال الاستمرار على الذنب أو عدم الإقلاع عنه أعظم عند الله من مجرد الوقوع فيه؛ لأن الوقوع في الذنب قد يكون بسبب غلبة نفس مرة من المرات، أو بعض العوامل الخارجية التي تؤثر في الإنسان فيقع في الذنب؛ فهذا من حيث الطبيعة البشرية مُتصَوِّرٌ ومفهومٌ وإن كان ذنباً. لكن أن تظل بقية عمرك دون توبة على ما فعلت، فهذا غير مفهوم باعتبارك مسلماً، وباعتبارك ستقدم على الله سبحانه وتعالى وسيحاسبك عن أعمالك. لماذا لا تتوب؟! بدأ الإنسان بذنب، لماذا يستمر؟! أنت مسلم، أنت ستلقى الله سبحانه وتعالى، لماذا تستمر؟! غلبتك نفسك مرة، لماذا تستمر؟! لماذا تصدق بعض الأطروحات الشيطانية التي تقول لك: ما دمت وقعت في الذنب فلا فائدة؟! وهذه الوسوس والخواطر الشيطانية التي تحول بين الإنسان وبين حقيقة التوبة.

لذلك هذا التنبيه جميل، أنه قال: "وإجماع الأمة على وجوب التوبة"؛ التوبة واجبة، فإذا فات الإنسان أن لا يقع في ذنب معين، فينبغي ويجب عليه أن لا يفوته الإقلاع عن الذنب.

قال رحمه الله: "قال الله تعالى: ﴿...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾ [هود: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾ [التَّحْرِيم: ٨]"

هذه الأوصاف التي تأتي بعد الأعمال: توبةً نصوحًا... ما هي الصفات التي تأتي بعد الأعمال هكذا وتكون مقيدة؟ مثلاً:

- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾ [الحج: ٧٨].

- "ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ..." [صحيح البخاري: ١٢٨] أو "...خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ." [صحيح البخاري: ٦٥٧٠].

- "فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهِ." [صحيح البخاري: ١١٨٦].

هذه القيود مهمة جدًا؛ لأن الشريعة كما أتت بأساس التكليف، فقد أتت بحدود التكليف؛ الله سبحانه وتعالى عندما يأمرنا بالتوبة يجب منا أن نراعي ما حدده في هذه التوبة. لكن هل هناك تفاوت في درجات التوبة بحيث أن الله سبحانه وتعالى يجب توبة أكثر من أخرى؟ نعم، التوبة النصوح، وهذه التوبة النصوح الصادقة الخالصة، التي من لوازمها ومقتضاها أحد أمرين:

(١) عدم الرجوع إلى الذنب أصلاً.

(٢) أو العزم الصادق على عدم الرجوع إلى الذنب.

أقل ما يقال في التوبة النصوح إن معها عزمًا صادقًا على عدم الرجوع إلى الذنب، هذا أقل شيء يُقال في التوبة النصوح. فإذا كان عمل الإنسان مصدقًا لهذا العزم فهذه توبة نصوح حقًا.

الحديثان الأول والثاني: "وَاللَّهُ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ..." "يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ..."

"وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "وَاللَّهُ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً" رواه البخاري". [صحيح البخاري: ٦٣٠٧].

"وعن الأغر بن يسار المزني -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً" رواه مسلم". [صحيح مسلم: ٢٧٠٢].

هذان حديثان يبينان شيئاً من هدي النبي ﷺ اليومي المستمر، وهو تكرار الاستغفار والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذان الحديثان فيهما فوائد كثيرة، وتفيد في هداية الإنسان، أو استهدائه بالنبي ﷺ وبسننه بشكل واضح:

الفائدة الأولى: القدوة العملية.

النبي ﷺ كان قدوةً بعمله أمام أصحابه.

تعريف الحديث النبوي هو: قول النبي ﷺ، أو فعله، أو تقريره. عندما تفتح صحيح البخاري أو غيره من الكتب الحديثية، كم هي الأحاديث التي فيها: كان النبي ﷺ يقول كذا، كان النبي ﷺ يفعل كذا، كنا مع النبي ﷺ ففعل كذا؟ كم من الأحاديث على هذا النحو؟ كثيرة جداً!

ماذا لو حُذفت هذه الأحاديث وبقيت فقط "قال رسول الله ﷺ"؟ لو بقيت فقط النصوص القولية المباشرة، لضاع شيء أساسي، وكبير، ومحكم، وجوهري من السنة النبوية. هذا بالنسبة إلينا، ونحن ننظر إلى هذه الأفعال عن بعد. نحن الآن نستهدي بفعل النبي ﷺ وبيننا وبينه هذه الأسانيد وهؤلاء الرواة، ومع ذلك نرى في فعله ﷺ حقيقة الهداية، فكيف بمن عاش في زمنه ﷺ، وكان يراه بأعينه وهو يفعل كذا، ويقوم بكذا، ويذل كذا، ويغضب لكذا، ويرضى لكذا، ويضحك من كذا؟! كيف يكون مقدار الاهتداء بمشاهدة النبي ﷺ في مثل هذه الأفعال؟!

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] كيف؟ كيف تكفرون وفيكم رسوله؟!

● تأثير القدوة العملية على من عاصر النبي ﷺ:

والأمر الآخر: لما ذكر الله سبحانه وتعالى اضطراب المنافقين يوم الأحزاب، وقبل أن يذكر الثابتين والصابرين والمؤمنين، أول أمر قدّم لهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أسوة حسنة ليست فقط في السواك، وفي اللباس، وفي السنن مثلاً في الصلاة.. أسوة حسنة.

أصلاً، هذا السياق الذي ذكرت فيه أسوة حسنة: في الثبات أمام أعداء الله، في جهاد المشركين، وفي الصبر، وفي عدم الخوف من أعداء الله؛ هذه أسوة حسنة، أسوة حسنة ذكرت في هذه المقامات؛ ولذلك، أن تخوض معركة مع النبي ﷺ، ثم ترى بأمر عينيك كيف ثبت رسول الله ﷺ، وكيف جاهد، وكيف كان شجاعاً، وكيف كان ثابتاً، كيف تظن أن يكون حالك بعد ذلك حين تخوض معركة أو تجاهد في سبيل الله؟! ولذلك، الذين عاشوا مع النبي ﷺ أدركوا شيئاً من الفقه، وشيئاً من قيمة الأشياء والأعمال لم يدركها من بعدهم. ولذلك كنا نتكلم قبل قليل عن أهمية الفقه في هدي النبي ﷺ.

وكثيراً ما يوقفني هذا الحديث العجيب، الذي فيه فرق بين رجلٍ أدرك النبي ﷺ وعاش ورأى هديه، وبين أناس لم يروا هدي النبي ﷺ، وإن كان نمت إليهم بعض الأحاديث المتفرقة، وهو حديث أبي برزة الأسلمي يوم النهروان، لما صلى وكان أمامه بعض الخوارج.

يوم النهروان: قتال الصحابة مع الخوارج. عندما تفكر، هذا عنوان غريب: الصحابة مع الخوارج، أي هناك فريقٌ فيه الصحابة، وهناك فريقٌ فيه أناس يزعمون أنهم أتقى من الصحابة، وأغیر على دين الله من الصحابة! تخيل!

الشاهد: كان أبو برزة الأسلمي -رضي الله عنه- يُصلي، وكانت دابته بجواره. أثناء الصلاة، انفلتت هذه الدابة. فلتة الدابة لها ضريبة كبيرة جداً: كيف سيرجع مسافة شهر أو أسبوعين مشياً! قصة طويلة! فأخذ يتبعها وهو في صلاته، والخوارج في الطرف الآخر ينظرون قالوا: فعل الله بهذا الشيء! يعني أعوذ بالله انظر كيف هي صلاته! يمسك الدابة في الصلاة! هذا متخلف أم لا يفهم الدين؟ فكان أبو برزة

-رضي الله تعالى عنه- ليس عنده طبعاً نص نبوي مباشر في حكم أخذ الدابة أثناء الصلاة، ولكن هذه هي الفكرة: إِبصار الهدي النبوي الفعلي بالمباشرة، بالرؤية الشمولية.

بالنسبة لي هذا عنوان من أهم العناوين، وربما كلكم أو أكثركم يحفظ هذا النص، وهو في البخاري، قال: "إِنِّي غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّ غَزَوَاتٍ - أَوْ سَبْعَ غَزَوَاتٍ - وَثَمَانِي، وَشَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ..." [صحيح البخاري: ١٢١١]

شهدت تيسيره في ماذا؟ في الصلاة وانفلات الدابة وتتبعها؟ لا، هو قد لا يكون رأى هذا الموقف أصلاً؛ شهدت تيسيره أي: بهذه الصحبة أخذت هدياً شمولياً، فهمت منه أن لو رآني النبي ﷺ في مثل هذه الحال بمثل هذا العمل، لم ينكر علي، بل هذا أقرب إلى عنوان التيسير الذي شهدته من أفعال النبي ﷺ بمجموعها.

الشاهد: أن أفعال النبي ﷺ مركزية ومهمة وجوهرية في الاستهداء، في الهداية. يجب معرفة أفعال النبي ﷺ؛ الدين لا يؤخذ بمجرد الأحاديث القولية.

وفضلاً عن ذلك، اجتهادات العلماء المشكورة العظيمة، التي استفدنا منها كلنا على مر التاريخ، وهي الاجتهادات الفقهية التي جُمعت فيها المتون الفقهية، وما إلى ذلك، الفكرة منها أن تكون وسيلة مسهلة لضبط الأشياء وحفظها، لا أن تكون حاجزاً بينك وبين الهدي النبوي؛ مثلاً: المتون الفقهية فيها صفة الصلاة: باب في صفة الصلاة، وفيها أركان الصلاة، وواجباتها، ومستحباتها.

إذا ظننت أن المطلوب منك أيها المسلم، يا طالب العلم، أن تحفظ هذه الأركان والواجبات والشروط، وتحفظ المتن في صفة الصلاة، وتظن أنك الآن عرفت ما ينبغي عليك، فوالله أنت مسكين؛ لكن أنت تحتاج أن تضبطها من باب الضبط العلمي، وهو أن هذه مستخلصات مهمة مفيدة، تعرف فيها تحرير الأقوال وكذا... وتحفظها وتنطلق بها، ممتاز جداً! لكن هذا شيء، وأن تعيش مع هدي النبي ﷺ وصلاته شيء آخر؛ ومن تربى في قضية الدروس العلمية والمجالس العلمية على الجانب الأول فقط، سيكون هناك إشكال كبير جداً في النتيجة التي سيخرج بها. مشكلة أن يظن العلم عبارة عن مجموعة

من القوانين، كأنها قوانين يكتبها أناس عاديون: الشرط الأول، الشرط الثاني، الشرط الثالث، وإذا ما فعل تبطل الصلاة... نقطة، وانتهينا، الباب الذي بعده. وتعامل مع الدين وكأنه عبارة عن قوانين، قوانين، قوانين! ليس الأمر هكذا أبدًا!

وفي نفس الوقت، لا يصح أن نقول هذه أقفلوها! هذه وسائل مفيدة جدًا لضبط العلم، مستخلصات تستفيد منها؛ لكن لا تكن هذه الأشياء حاجزًا بينك وبين حقيقة الهدي النبوي الذي فيه الروح، فيه ما كان عليه محمد ﷺ.

وفرّق كبيرٌ بين أن تأخذ مسألةً فقهيةً حاضرة، عنوانها مثلاً: ويجوز التطوع جالسًا، وبين أن تقرأ: "وكان النبي ﷺ يُصَلِّي لَيْلًا طَوِيلًا قَائِمًا، وَلَيْلًا طَوِيلًا قَاعِدًا"؛ [صحيح مسلم: ٧٣٠] أي: لما تعب النبي ﷺ. وحتى في بعض الروايات: "بَعْدَمَا حَطَمَهُ النَّاسُ" [صحيح مسلم: ٧٣٢]. الرواية في الصحيح، في البخاري وفي مسلم: "فَكَانَ يَقْرَأُ قَاعِدًا، حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، فَقَرَأَ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً - أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً - ثُمَّ رَكَعَ" [صحيح البخاري: ١١١٨]؛ يعني النبي ﷺ كان يصلي قاعدًا، لكن إذا لم يبق على الركعة إلا هذا القدر، يقوم النبي ﷺ فيقرأهن قائمًا، ثم يركع، ويكمل صلاة الليل.

هناك فرق بين أن تعرف الهدي النبوي بروحه، بما فيه من هداية وزكاء ونور، وبين أن تستخلص الأحكام، أو تأخذها مستخلصة جاهزة. فهذه قضية ينبغي التنبيه لها كثيرًا.

كان هناك نصٌّ للإمام الشاطبي -رحمه الله تعالى-، كان نصًّا جميلًا ذكرته في اللقاء السابق، وهو هل هذا الهدي الفعلي خاص بالنبي ﷺ؟

الشاطبي يقول لك: "وارث النبي ينبغي أن يقوم مقام النبي في الهداية بفعله وقوله؛ لأن الوارث قائم مقام الموروث، فكما كان النبي ﷺ مبيّنًا للدين بقوله وفعله، كذلك ينبغي أن يكون الوارث مبيّنًا للدين بقوله وفعله". وهنا تأتي أهمية القدوة الحسنة لأهل العلم، وللمصلحين، وللدعاة، وللمبلغين لدين الله، وتأتي خطورة أن تأخذ العلم بلا قدوة، أن تظن العلم عبارة عن معلومات مفارقة، ينالها الإنسان ببرنامج

يوتيوب، أو بتغريدات في شبكات التواصل، أو بمقالات فيسبوك، أو مناقشات هنا أو هناك، ويظن أنه يحصل العلم؛ لابد أن تقتدي، أن تأخذ أدبًا، وهديًا.

ولذلك، كما جاء عن النبي ﷺ: **"..وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ.."** [أبو داود: ٣٦٤١ / صحيح]، فلا شك أن وارث الأنبياء ليس مجرد إنسان عنده معلومات شرعية عالية جدًا، حتى لو شابت لحيته في العلم، العالم ليس هو مجرد الشخص المتقن للمسائل العلمية.

الفائدة الثانية: أنواع النيات في العبادة الواحدة.

لماذا كان النبي ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم سبعين مرة أو مائة مرة؟ وهذا يفتح لنا بابًا عظيمًا جدًا، وبابًا كبيرًا وهو باب:

لماذا يُسبح الإنسان؟ ما الذي يريده بالتسبيح؟ ما الذي يريده بالحمد؟ ما الذي يريده بالتكبير؟

وحقيقةً -برأيي- الذي يفقه هذا الباب يفقه بابًا من أعظم أبواب التعبد، ومن أحلى أبواب التعبد، ومن أزكى أبواب التعبد، ومن أجمل أبواب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى. وكأن الإنسان الذي لا يفقه هذا الباب، كأنه أمام دار ضيقة، وباب واحد يوصل إلى هذه الدار، وهو يدخل هذه الدار ويرى أنها دار واسعة وطيبة، والآخر أمام قصرٍ كبيرٍ منيفٍ أمام هذه الدار، وفيه ما لا يُحصى من الأبواب، وإذا دخله أدرك سعة هذا القصر، وسعة أبوابه، ومدخله، ومخارجه، في مقابل ضيق تلك الدار؛ وهو باب توسيع المقاصد والنيات في العبادة الواحدة، ومقدار ما يُستحضر في العبادة الواحدة.

أضرب له مثلًا حتى يتضح:

أنت الآن بعد الصلاة تقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر. ما الذي يستحضره الإنسان أثناء التسبيح؟ ما الذي يستحضره أثناء الحمد؟ ما الذي يستحضره أثناء التكبير؟

- التسبيح: قد يراد به التعظيم؛ التعظيم الذي هو التنزيه أم التعظيم مطلقًا؟ التعظيم مطلقًا.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا...﴾ [الإِسْرَاءُ: ١]؛ التسبيح يراد به هنا التعظيم، وليس المقصود الأساسي التنزيه. وغيرها من الآيات، التي يراد منها التعظيم، ذكر شيء من آيات الله، ذكر شيء من عظمة الله، ذكر شيء من أسمائه وصفاته.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٤٣] يراد منها التنزيه.

الذي يُستحضر في القلب أثناء التعظيم غير ما يستحضر فيه أثناء التنزيه؛ هناك باب عبودية قلبية متعلقة بالعلم بالله يُستحضر فيه معنى التنزيه لله، وهناك باب من أبواب العبودية القلبية يُستحضر فيه معنى التعظيم لله.

– كذلك الحمد؛ تحمد الله، وأحياناً كل ما تستحضره الحمد المقارب لمعنى الشكر، الذي تستحضر فيه نعمة معينة أو نعماً كثيرة.

وقد يُراد بالحمد الشاء على الله، وأنت لا تستحضر ولا تقصد نعمة معينة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الْفَاتِحَةُ: ٢] هذا حمدٌ وثناءٌ.

كذلك الاستغفار؛ كان السؤال لماذا يستغفر النبي ﷺ في اليوم مائة مرة؟ ما الذي يُستحضر أثناء الاستغفار؟

(١) قد يُستحضر بطبيعة الحال الذنوب؛ قد يستحضر ذنب معين؛ مثلاً: إنسان في مجلس، واغتاب، يرجع إلى نفسه يستغفر: أستغفر الله، أستغفر الله، رب اغفر لي. ماذا يقصد؟ الغيبة هذه. وقد يكون الاستغفار مثلاً: إنسان كان مسرفاً في الذنوب والمعاصي وتاب، ولزم الاستغفار، ماذا يقصد؟ الحياة السابقة هذه، أستغفر الله أستغفر الله، أي: يا رب اغفر لي زلاتي، وهفواتي، ومعاصي، وذنوبي، وكبائري، وصغائري في الحياة الماضية. لكن كلها تحت عنوان: استغفار من ذنوب، سواء محددة، غير محددة، كثيرة، قليلة.

في ماذا تستغفر الله أيضاً؟ ماذا يوجد أيضاً كدرجة أعلى؟

٢) الاستغفار من التقصير في الطاعة.

سؤال: التقصير في الطاعة، هل هو بالضرورة ذنب؟ هل تصنيفه في الشريعة ذنب يأثم عليه الإنسان؟ أم قد يكون عدم أداء الطاعة كما ينبغي وإن لم يكن ذنباً يأثم عليه الإنسان؟ قد يكون نقص كمال، والمطلوب شرعاً تجاهه الاستغفار.

أول شيء يقال بعد الصلاة: أستغفر الله، ثلاثاً، وأولى ما يكون بسببه هذا الاستغفار بعد الصلاة، هو التقصير الذي يمكن أن يكون في الصلاة: خاطر، شرود... إلخ.

٣) وقد يكون الاستغفار لمعنى الوقاية من الذنوب.

٤) وقد يكون استحضاراً لجلال الله وعظمته، واستحضاراً لنقص الإنسان وضعفه، وأنه مهما فعل لا يؤدي؛ فيستغفر الله، ليس مستحضراً تقصيراً في طاعة معينة، ولا مستحضراً ذنباً معيناً، وإنما مستحضراً جلال الله وما ينبغي له عموماً، ومعرفة أن الإنسان في عامة أمره مقصر، فيقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أي: يا ربي، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا العظمة والكمال، يا رب كل شيء، يا رب، أنت تستحق كذا وكذا، وأنا يا ربي مقصّر فيما ينبغي تجاهك، أي مجموع حياتك لا يعبر عن ما ينبغي؛ ليس ما ينبغي باعتبارك مسلماً، بل باعتبارك تنظر إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد يكون، وقد يكون، وقد يكون... أنواع من النيات تُستحضر.

لذّة الإيمان تكون عندما تُنوع النيات في العبادة الواحدة.

"سبحان الله": تارةً تستحضر التعظيم، وتارةً تستحضر التنزيه. والتنزيه: تارةً تستحضر تنزيهاً من قول معين يقوله المجرمون أو المشركون أو الظالمون، وتارةً تستحضر تنزيهاً من قول الشياطين، المهم استحضار التنزيه.

فعندما نفهم هذه السّعة، نفهم لماذا كان النبي ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه؛ لأن الذي يحصر نفسه في قضية الاستغفار للذنوب، تفتح له المسألة المعروفة: هل الأنبياء يذنبون؟ وهل هم معصومون من

الصغائر؟ وهل النبي معصوم؟ فلماذا يستغفر؟ ليست القضية في الشريعة أن الاستغفار مرتبطٌ بالذنب وانتهينا، الاستغفار بابٌ للقنوت والإخبات، والتعريف، والاعتراف بنقص الإنسان أمام الرحمن، وبابٌ لتغذية القلب بهذه المعاني على طول الطريق.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٧].

الحديث الثالث: "للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله بأرض فلاة"

"عن أبي حمزة أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- خادم رسول الله ﷺ"

قبل أن نبدأ بالحديث، خدمة رسول الله ﷺ شرفٌ فات كل هذه الأمة بعد وفاة النبي ﷺ، أن يعيش الإنسان وهو خادم لرسول الله ﷺ؛ ولذلك أن تتعامل مع الصحابة كأنك مثلهم وكأنهم مثلنا، فهذه قضية فيها ما فيها، أدركوا وبلغوا منازل لا تُدرك بعد ذلك، خادم رسول الله ﷺ.

"قال: قال رسول الله ﷺ: "للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله بأرض فلاة" [متفق عليه]. " [صحيح البخاري: ٦٣٠٩، صحيح مسلم: ٢٦٧٥، واللفظ للبخاري] "وفي رواية لمسلم: "للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فأنفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح. " [صحيح مسلم: ٢٧٤٧]

فوائد الحديث:

هذا الحديث في بيان منزلة التوبة من جهة من الجهات العظيمة، وهي جهة أن الله سبحانه وتعالى بجلاله وكبريائه وعظمته يفرح لتوبة عبده، إذ وافق الغاية التي خلقه لأجلها، وعاد وتحرر من أسر عدوه الذي هو الشيطان، وانفلت من هذا الأسر عائدًا منيًّا إلى الرحمن سبحانه وتعالى؛ فالله سبحانه وتعالى يفرح بهذه العودة، عودة عبده إليه إذ وافق ما خلقه لأجله.

وهو سبحانه وتعالى غني عن عبده، وغني عن أعمال عباده، ولكن هذا يُبين لنا أن الله سبحانه وتعالى رحيم، وأن الله رؤوف، وأن الله سبحانه وتعالى يحب عباده المؤمنين، ويحب التوابين. وهذا يضاف إلى معنى: لماذا يتوب الإنسان؟ الإنسان يتحرى الأعمال التي يحبها الله سبحانه وتعالى، ويتطلب رحمته بناءً على ذلك.

ابن القيم - رحمه الله - له تعليق طويل وجميل على هذا الحديث، يراجع في (مدارج السالكين).

الأحاديث الرابع والخامس والسادس: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْطُرُ يَدُهُ بِاللَّيْلِ... " مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ... " إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ "

"عن أبي موسى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْعَرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْطُرُ يَدُهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدُهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا". رواه مسلم" [رواه مسلم: ٢٧٥٩]

"وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ". رواه مسلم" [رواه مسلم: ٢٧٠٣]

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ". رواه الترمذي، وقال: حديث حسن" [رواه الترمذي: ٣٥٣٧/ حسن غريب]

فوائد الأحاديث:

هذه الأحاديث فيها:

أن الله سبحانه وتعالى رحيم، وأنه قد فتح باب التوبة، وهذا الباب مفتوح على مصراعيه؛ يستقبل هذا الباب التائب مهما كان مذنبًا، مهما كان عاصيًا، مهما كان مقصرًا، مهما كان مجرمًا، مهما كان

مسرفاً. هو باب عنوانه: من تاب تاب الله عليه. غير أن هذا الباب له أمد للإغلاق؛ إمّا أن يدركه الإنسان وإما أن يغلق دونه.

وهذا الأمد على نوعين: أمد عام، وأمد خاص.

(١) أما الأمد العام فهو: إلى أن تطلع الشمس من مغربها؛ فبعد ذلك، إذا طلعت، لا توبة.

(٢) وأما الأمد الخاص فهو: حياة الإنسان، فإذا مات الإنسان أغلق باب التوبة دونه.

وهذا المبدأ ينبغي أن يشغل بال الإنسان طالما أنه حي؛ عليك دائماً أن تدرك أن هناك باباً مفتوحاً أمامك قد يُغلق في أية لحظة، باعتبار أنك قد تموت في أية لحظة. ففكرة تعريف الحياة بأنها فرصة، هذا تعريف مهم بالنسبة للإنسان المؤمن.

اللهم يا ربنا يا أرحم الراحمين، إنا نستغفرك ونتوب إليك، ونسألك أن تتوب علينا، وتهدينا يا رب العالمين.

نختم المجلس بهذا الحديث:

الحديث السابع: "كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا - أَوْ مُسَافِرِينَ - أَلَّا نَنْزِعَ خِفَانَا ..."

هذا الحديث فيه قصة، والقصص في وقت النبي ﷺ - برأيي - من أهم الأحاديث التي تفيد في الهدى النبوي؛ فجزء من التعرف على هدى النبي ﷺ يكون عبر القصص التي وقعت في حياته. هذا مهم جداً.

"عن زُرِّ بْنِ حَبِيشٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْحُقَيْنِ" صَفْوَانُ صَحَابِي وَزَرَ تَابِعِي "فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زُرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصْعُقُ أَجْنَحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ". فَقُلْتُ: إِنَّهُ قَدْ حَكَ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْحُقَيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتُ أَمْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا - أَوْ مُسَافِرِينَ - أَلَّا نَنْزِعَ خِفَانَا

ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبُولٍ وَ نَوْمٍ. فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهُوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٌّ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: "هَؤُومَ". فَقُلْتُ لَهُ: وَيَجُكَّ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَغْضُضُ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: "يَسْأَلُ النَّبِيُّ ﷺ "الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". "هذا جواب سؤاله عن الهوى "فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةَ عَرْضِهِ، أَوْ يَسِيرَ الرَّكَّابِ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا - قَالَ سُفْيَانُ أَحَدُ الرُّوَاةِ: قَبْلَ الشَّامِ - خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". [رواه الترمذي: ٣٥٣٥ / حسن صحيح]

هذا الحديث الجميل بهذه المحادثة الجميلة فيه فوائد:

فوائد الحديث:

أهمية الهدي العملي الذي عاشه الصحابة مع النبي ﷺ والذي لن ندركه، ولكن ندرك شيئاً منه بعنايتنا بهذه الأحاديث، بهذه السنة، وبهذا الهدي العملي الذي كان عليه النبي ﷺ؛ فعل، وقال، وذهب، وتحدث، وتكلم، وردّ وفرح، وغضب،... إلى آخره، لكن الشرف هنا كل الشرف، مع أنه نفس الزمن، لكن لاحظوا الفرق الهائل بين شخص يقول: ما حكم المسألة؟ فالثاني يقول له: كنا مع النبي ﷺ. كيف يكون شعور التابعي وهو يلتقي بشخص جوابه: كنا مع النبي ﷺ، خرجنا مع النبي ﷺ، قاتلنا مع النبي ﷺ؟! يشعر أنه قادم من زمن بعيد، مع أن الفرق بين الزمانين لا يكاد يذكر! فما بالكم بشعور ذلك التابعي الجليل الشريف - رضي الله تعالى عنه ورحمه - لما قدم المدينة بعد وفاة النبي ﷺ بخمسة أيام، أدرك كل الصحابة، وصلى خلف أبي بكر رضي الله عنه. وذلك التابعي الكبير قيس بن أبي حازم الذي روى عن العشرة المبشرين بالجنة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والبقية كلهم، ولم يدرك النبي ﷺ.

وبعضهم كان حيًّا في زمن النبي ﷺ، لكن لم يدرك أن يهاجر، أو يرى النبي ﷺ، ثم بعد ذلك التقى بالصحابة. فمجرد قضية: ما عندك في هذا؟ فيقول لك: "كنا مع رسول الله ﷺ" هذه قضية لا ينبغي أن تمر ببساطة، هي شيء مختلف! شيء عجيب! شيء عظيم جدًا جدًا أن يكون هذا الجواب!

"ما جاء بك يا زُرُّ؟ فقلتُ: ابتغاء العلم، فقال: إِنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتها لطالبِ العلمِ رضا بما يطلبُ" هنا لم ينسبه إلى النبي ﷺ، لكن هذا قطعًا له حكم الرفع؛ هذا كلامٌ ليس اجتهدائيًا، لا يقدر أن يجيء به من اجتهداه -رضي الله تعالى عنه-، وإنما هو منسوب إلى النبي ﷺ.

على أنه روي مرفوعًا من جهة أخرى، لكن نحن نأخذ الموقوف هنا. ولم أبحث حقيقة في الأرجح، المرفوع أم الموقوف، لكن حتى لو كان الراجح هو الموقوف فله حكم الرفع.

لا أريد أن أعلق على كل جملة، فالحديث فيه فوائد كثيرة؛ ومن أهمها قضية الملائكة، وعلاقة الإنسان المؤمن بالملائكة، وعلاقة طالب العلم بالملائكة، وقضية أن عالم الشهادة الذي نعيش فيه به مساحات هائلة من الغيب، مساحات من عالم الغيب اليوم وليس في الآخرة.

نحن الآن في هذا المجلس، لو كُشفت لنا صفحة عالم الغيب الموجود في هذا المجلس، الله أعلم ماذا يوجد فيه، يعني كل واحد عنده قرينه، إن شاء الله ملائكة تأمر بالخير، وتحضر مجالس الذكر، نرجو إن شاء الله كذلك.

لا تظن أنك إذا سرت في الشارع، ورأيت خاليًا أن لا أحد فيه، يوجد عالم غيب كبير واسع، فيه شياطين وفيه ملائكة. وليس عالمًا مستقلًا، هو عالمٌ مرتبطٌ بالإنسان ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ هناك كتابة تسجّل.

نحن نتكلم الآن عما هو متصل بعالم الشهادة في الأرض، في المجالس، في الغدوة والروحة.

أنت تدخل الخلاء، وتستعيد بالله من الشياطين:

"إذا استيقظ أحدكم من منامه، فتوضأ، فليستنثر ثلاثاً؛ فإن الشيطان يبيت على خيشومه." [صحيح البخاري: ٣٢٩٥].

"إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ." [صحيح مسلم: ٢٠١٨].

هناك عالم غيب، وفي نفس الوقت هناك عالم ملائكة جميل جداً، ومطمئن جداً: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [الأنفال: ١٢]. وتعرف عن ابن مسعود: "إن للشيطان لمة وإن للملك لمة". وهنا: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب". وقضية حضور مجالس الذكر "إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً، فَضُلًّا، يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ..." [صحيح مسلم: ٢٦٨٩]. والقصة المعروفة فيها...

الشاهد من هذا الحديث كله، هو الذي ساق النووي لأجله -رحمه الله تعالى- على هذا الحديث هو: قضية التوبة، لكن نريد أن نعلق على قضية الأعرابي.

الشَّرَاحُ تختلف نظراتهم؛ هناك شراح يميلون إلى نظرة معينة في تفسير الحديث، وهناك شراح يحاولون أن يفهموا الموقف كما هو؛ فبعضهم قال: هنا إنما رفع صوته من باب المحبة والشوق وكذا... وهذا الكلام فيه نظر؛ فمجرد إبراز صفوان بن عسال أنه أعرابي، فهذا يهيئك مع رفع الصوت، أن هذه من سمات الأعراب، وهذا معروف في أحاديث أخرى.

وفي رواية أخرى للحديث فيها: "وكان فيه غلظة وجفاء". لكن النبي ﷺ لما رد بهذا الرد، واضح أنه رد لطيف، مثلاً: تخيل عالماً من العلماء له هيئته، ومجلسه، ويأتي شخص من الجهال من بعيد: يقول: يا شيخ، فيقول له الشيخ: تفضل، يرفع صوته مثله، فهذا فيه قدرٌ من الطرفة، لكن الأولى واضح أن فيها إشكال.

فالشاهد: أن هذا الأعراي نادى "يا محمد"، أنت الآن معه في نفس القافلة، وفي نفس المسير، لو تتقدم وتذهب جهة النبي ﷺ وتنادي بهدوء، قال له الصحابة: "اغضض من صوتك" فهو قال لهم: لا، فالنبي ﷺ قال له: "هاؤم"، وهاؤم لفظ لطيف، جاء في القرآن ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُ وَكِتَبٌ﴾ [الحاقة: ١٩]، أي: خذوا وانظروا، فكأن النبي ﷺ يقول له مثل: تفضل، أو كلمة قد لا تفهم لفظيًا تمامًا؛ لأن (هاؤم) أشبه ما يكون (بخذ) أو (هاك)، لكنها في سياقها واضحة المعنى. الشاهد: أن النبي ﷺ استجاب له بهذه الطريقة اللطيفة.

فقال الرجل: "المَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ"، وكأني بهذا الأعراي الصادق يعبر عن نفسه، وكأنه حضر هذه المرة مع النبي ﷺ، ورأى الصحابة، وكأنه يعبر عن نفسه، ويقول: يا رسول الله، أنت حولك هؤلاء الصحابة دائمًا معك، ويتعلمون منك، ويعبدون الله عبادة كثيرة، ويجاهدون في سبيل الله، وأنا أعراي بسيط..

وهذا السؤال -سبحان الله- فعلاً كأنه يعبر عن نفسه: "المَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ" أنا أحبكم يا رسول الله "ولمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ"، فقال النبي ﷺ: "المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وهذا الحديث كما تعلمون، أو ربما مر على بعضكم، عدّه بعض الصحابة، أو بعض العلماء من أرجى الأحاديث؛ فيه رجاء عظيم جداً! أن الإنسان بصميم محبته، وصدق محبته للصالحين، وقبل ذلك للنبي ﷺ ولأصحابه، قد يبلغ من المنازل في الآخرة ما لم يبلغها إياه عمله، وإنما بلغت إياه محبته. ولا شك أنها محبة ينبغي أن تكون صادقة؛ بمعنى أنه لا يكون في حياة الإنسان ما يناقضها، ويعارضها، بحيث يعيش الإنسان حياته عكس ما تظهر هذي المحبة. لكن صدق المحبة هذا قد يبلغ الإنسان الدرجات العالية.

ولذلك، إياك أن تراهن على عملك، إياك أن تراهن على اجتهدك؛ اعلم أن المحبة شرط أساسي، وأن المحبة رياح مبلّغة وحاملة للإنسان، قد يقطع بها درجات في الطريق، لا يقطعها بمجرد عمله.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يُحب النبي ﷺ محبةً صادقةً، وممن يحب أصحابه محبةً صادقةً،
وممن يحب التابعين لهم بإحسانٍ محبةً صادقةً، ونسأله أن يحشرنا معهم بفضلِهِ وجودِهِ ومَنِّهِ وكرمه
وإِحسانِهِ، وأن يتجاوز عَنَّا، وأن يعفو عَنَّا بفضلِهِ ورحمته وجودِهِ وكرمه وإِحسانِهِ.

ربنا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد.